تفسير سورةُ المؤمنون

من آية (101) إلى آية (118)

اللقاء الثامن والأخير

المعنى الإجمالي من آية (78) إلى آية (100):

يمتنُّ اللهُ تعالى على عبادِه بأنَّه هو الَّذي أنشَأَ لهم السَّمعَ الذي به يسمعونَ، والأبصارَ التي بها يبصرونَ، والقلوبَ التي بها يعقلونَ، لكِنَّهم لا يشْكُرونَ اللهَ إلَّا شُكرًا قَليلًا.

ويخبرُ أيضًا أنَّه هو الَّذي خلَقَهم وبثَّهم في الأرضِ، وإليه وَحْدَه يُجمَعونَ يومَ القيامةِ للحِسابِ، وأنَّه هو وحْدَه الَّذي يُحيي ويُميتُ، وله اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، فهما يتعاقبانِ بقدرتِه؛ أفليس لهم عقولٌ يُدركونَ بها ذلك؟!

لكِنْ هؤلاء الكفَّارُ لا يعقِلونَ تلك الأدلَّةَ، بل أنكَروا البَعثَ، فقالوا مِثلَ ما قال أسْلافُهم المنكِرونَ له؛ قالوا: إذا مِتْنا وصِرْنا ترابًا وعظامًا في قبورِنا هل نُبعثُ بعد ذلك؟! هذا لا يكونُ أبدًا، لقد وُعِدَ آباؤُنا بمِثْلِ هذا مِن قَبْلُ، كما وُعِدْنا نحنُ به الآنَ، لكن لم نَرَ لهذا الوعدِ حقيقةً، ما هذا البعثُ الذي وُعِدنا به إلَّا أكاذيبُ الأوَّلينَ ورواياتُهم المختلقةُ الَّتي سَطَّروها مِنْ عندِ أنفُسِهم في كتُبِهم!

يأمرُ الله نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لِقَومِه المشرِكينَ المكذِّبينَ بالبعثِ: لِمَن هذه الأرضُ ومَن عليها إن كنتُم تعلمونَ؟ سيقولونَ مجيبينَ: للهِ، قُلْ لهم: أفلَا تَتذكَّرونَ بأنَّ مَن خلَقَ الأرضَ ومَن فيها قادِرٌ على إحياءِ النَّاسِ بَعدَ مَوتِهم؟!

ويأمرُه أن يقولَ لهم: مَن خالقُ السَّمواتِ السَّبْعِ ومدَبِّرُها ومالِكُها، ومَن خالقُ العرشِ العَظيمِ ومدَبِّرُه ومالِكُه؟ سيَقولون: ذلك كلُّه للهِ خالقِ كُلِّ شَيءٍ، فقُلْ لهم: أفلَا تخافونَ عَذابَه؛ وغضَبَه وسخطَه؟! قلْ لهم: مَن بيَدِه مُلْكُ كُلِّ شَيءٍ، ومَن يُغيثُ مَن يشاء مِن خَلقِه ممَّن يُريدُ به سوءًا أو ضرًّا، ولا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يَحْمِيَ ويَمنَعَ مَن أراد اللهُ به السوءَ والضرَّ، إنْ كنتُم تَعلمونَ ذلك؟ سيَقولونَ: كُلُّ ذلك للهِ، قُلْ لهم: إنِ اعترَفْتُم بذلك فكيف يُخَيَّلُ إليكم الباطِلُ حقًّا، وكيف تُصْرَفونَ عن الحقِّ إلى الباطِلِ؟!

ثم يقولُ تعالى: بلْ أتَيْناهم بالحَقِّ، وإنَّهم لَكاذبونَ في زعمِهم الشَّريكَ والولدَ لله، ودَعْواهم أنَّ البَعثَ غيرُ واقعٍ!

ويخبرُ تعالى أنَّه ما اتَّخَذَ سبحانه وتعالى لنَفْسِه ولدًا كما يَزعُمُ النصارى وغيرُهم، ولم يكُنْ معه مِن إلهٍ آخَرَ، فلو كان معه آلهةٌ أخرَى لانفَرَد كلُّ إلهٍ بما خلَقَ، ولأرادَ كلُّ إلهٍ أن يعلوَ على الآخَرِ ويقهرَه، مما يستحيلُ معه أن ينتظمَ أمرُ هذا الكونِ.

تَنزَّهَ اللهُ سُبحانَه وتعالى وتقدَّس عمَّا يَصِفُه به هؤلاء المشركونَ، هو وَحْدَه العليمُ بما غاب عن خَلقِه وما شاهَدوهُ، فتَنزَّهَ اللهُ وتقَدَّس عن شركِ المشركينَ، وتعالى عمَّا يصفونَه به من العيوبِ والنقائصِ.

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: قُلْ -يا محمَّدُ-: ربِّ إنْ تُرِيَنِي العَذابَ الَّذي وعدتَ به هؤلاء المشرِكينَ، فنَجِّني حِينذاكَ، ولا تجعَلْني في هؤلاء القومِ الظَّالمينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قادِرٌ على أن يُرِيَه العذابَ الَّذي أعدَّه لهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقابلَ أذاهم بالخَصلةِ التي هي أحسَنُ الخصالِ؛ وأن يصبرَ على أذاهُم، ويبيِّنُ له أنَّه تعالى أعلَمُ بما يَصِفُه هؤلاء المشرِكونَ مِنَ الشِّركِ والتَّكذيبِ.

ويأمرُه كذلك أن يستعيذَ به مِن وَساوسِ الشَّياطينِ، ومِن نَزَغاتِهم المغريةِ على الباطِلِ، وأن يستجيرَ به مِن حُضورِهم في أيِّ أمْرٍ مِن أُمورِه.

ثمَّ يخبرُ تعالَى عن حالِ المحتضَرينَ مِن المفرِّطينَ الظالمينَ، فإنَّه إذا فاجَأَ أحدَهم الموتُ، ونزَلَت به سكَراتُه، ولاحَتْ لهم علاماتُ العذابِ؛ قال حينَها: ربِّ ارجِعْني إلى الدُّنيا؛ لكيْ أعملَ عملًا صالحًا أستدركُ به ما فرَّطتُ فيه مِن الإيمانِ والطاعاتِ.

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ الأمرَ ليس كما قال هذا الكافرُ النَّادمُ؛ فلن يستجيبَ اللهُ تعالى لهذا الطلبِ، فإنَّ طلبَه هذا مجرَّدُ كَلِمةٍ يقولُها حينَ يأتيه الموتُ، ولا تنفعُه شيئًا؛ ومِن أمامِ هؤلاءِ الموتَى حاجِزٌ يَحولُ بيْنهم وبيْن الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، وهذا الحاجِزُ مُستمِرٌّ إلى يومِ البَعثِ والنُّشورِ. الدرر السنية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾﴿101﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:قال الرازي: لَمَّا قال اللهُ سُبحانَه: وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [المؤمنون: 100]؛ ذكَرَ أحوالَ ذلك اليومِ، فقال

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) أي: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخةُ البَعثِ، وقام النَّاسُ مِن قُبورِهم، فلا تَنفَعُهم حينَئذٍ أنسابُهم، ولا يَفتَخِرونَ بها، ولا يَسألُ أحدٌ منهم أحدًا. موسوعة التفسير

إذا نفخ في الصور نفخة البعث قام الجميع بأمر الله في فزع شديد، ولا يهتم أحد بسؤال أحد مهما بلغت درجة القرابة، عن عكرمة، ثم قال: وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي أَمْرِ الشَّفَاعَةِ أَنَّهُ إِذَا طُلِبَ إِلَى كُلِّ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْخَلَائِقِ، يَقُولُ: نَفْسِي، نَفْسِي، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي، حَتَّى إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ يَقُولُ: لَا أَسْأَلُهُ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي، لَا أَسْأَلُهُ مَرْيَمَ الَّتِي وَلَدَتْنِي، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ.

فالكل ذاهل مفزوع من مفاجأة الانتقال والحضور بعد الغياب والبعث بعد الموت والاستعداد لوزن الأعمال ليجازى المحسن بإحسانه والمسيء بما قدم، وساعتها يفرح أهل الأفراح ويتحسر أصحاب الجحيم.

قال السعدي: يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدا عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال سُبحانَه: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [عبس: 34 - 37].

قَالَ -ﷺ-:"يَلْقَى إبْراهِيمُ أباهُ آزَرَ يَومَ القِيامَةِ، وعلَى وجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ، فيَقولُ له إبْراهِيمُ: ألَمْ أقُلْ لكَ: لا تَعْصِنِي؟ فيَقولُ أبُوهُ: فاليومَ لا أعْصِيكَ، فيَقولُ إبْراهِيمُ: يا رَبِّ، إنَّكَ وعَدْتَنِي أنْ لا تُخْزِيَنِي يَومَ يُبْعَثُونَ، فأيُّ خِزْيٍ أخْزَى مِن أبِي الأبْعَدِ؟ فيَقولُ اللَّهُ تَعالَى: إنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ علَى الكافِرِينَ، ثُمَّ يُقالُ: يا إبْراهِيمُ، ما تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فإذا هو بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فيُؤْخَذُ بقَوائِمِهِ فيُلْقَى في النَّارِ". صحيح البخاري

قال ابن رجب: اللهُ تعالى قدْ رتَّبَ الجزاءَ على الأعمالِ لا على الأنسابِ.

كما قال تعالى: "وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ" [المعارج: 11 - 14].

يتمنّى هذا المجرم الذي ارتكب ما ارتكب من الجرائم في حق المؤمنين، لو يفدي نفسه من عذاب هذا اليوم، بأقرب الناس إليه، وأعزّ الناس عليه، فكل همّه نفسه، لا يبالي بأحد غيره، فالأولاد وفِلْذات الأكباد، الذين كان في أوقات أزمات الدنيا يفديهم بنفسه، وبكلّ ما يملكه، يتمنى يوم القيامة عكس ذلك: أن يفدي نفسه ولو هلكوا هم بنوه وذريته وعصبته.

قال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه - قال - فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده وإن كان صغيراً أو زوجته، واستشهد بقول الله:" فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ".

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾﴿102﴾

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أي: فمَن ثقُلَت مَوازينُ حَسَناتِه، ورجَحَت على سَيِّئاتِه؛ فأولئك هم الفائِزونَ بالنَّجاةِ مِنَ النَّارِ، والخُلودِ في الجَنَّةِ. موسوعة التفسير

وقال الشنقيطي: (التحقيقُ أنَّه وزنٌ حقيقيٌّ بميزانٍ ذي لِسانٍ وكِفَّتينِ).

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾﴿103﴾

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) أي: ومَن خفَّت موازينُ حسناتِه، ورجَحَتْ موازينُ سيئاتِه؛ فأولئك الَّذين غَبَنوا أنفسَهم حُظوظَها مِن رَحمةِ اللهِ، وفاتَهم النعيمُ المقيمُ، فخابُوا وهَلَكوا. موسوعة التفسير

قَالَ -ﷺ-:"إِنَّه لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ". صحيح البخاري

إن الرجل العظيم المتعاظم على خلق الله في الدنيا المتجبر المتغطرس بأفعاله وأقواله، فإنه يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، ولا تكون له قيمة ولا منزلة لأن قلبه خلا من الإيمان.

قال السعدي: في القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر، من الخير والشر، (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) بأن رجحت حسناته على سيئاته (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل ،(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته (فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) كل خسارة، غير هذه الخسارة، فإنها -بالنسبة إليها- سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية ففوتها هذا النعيم المقيم، في جوار الرب الكريم.

(فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) أي: هم في جَهنَّمَ ماكِثونَ لا يَخرُجونَ منها. موسوعة التفسير

قال السعدي: لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافرا، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾﴿104﴾

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ) أي: تُصيبُ نارُ جهنَّمَ وُجوهَهم فتُحرِقُها إحراقًا شديدًا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ) [إبراهيم: 50].

وقال سُبحانَه: (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ) [الأنبياء: 39].

(وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) أي: وهم في جَهنَّمَ عابِسونَ قد تقلَّصتْ شِفاهُهم، وظهَرَتْ أسنانُهم؛ مِن أثرِ العذابِ. موسوعة التفسير

وقال ابنُ جرير: (وهم فيها متقلّصو الشّفاهِ عن الأسنانِ مِن إحراقِ النارِ وجوهَهم).

حِينَ يَشْتَدُّ الْحَرُّ، وَتَلْتَهِبُ الْأَجْوَاءُ، وَتَرْتَفِعُ دَرَجَاتُ الْحَرَارَةِ، يَتَذَكَّرُ مَنْ حَيِيَ قَلْبُهُ حَرَّ جَهَنَّمَ وَسَمُومَهَا، وَقَدْ رَبَطَ النَّبِيُّ بَيْنَ الْحَرَّيْنِ فَقَالَ: "فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْبَرْدِ، مِنْ زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، هُوَ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ".

النَّارُ هِيَ الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُتَمَرِّدِينَ عَلَى شَرْعِهِ، وَهِيَ عَذَابُهُ الَّذِي يُعَذِّبُ بِهِ أَعْدَاءَهُ، وَسِجْنُهُ الَّذِي يَسْجُنُ فِيهِ الْمُجْرِمِينَ، وَهِيَ الْخُسْرَانُ الَّذِي لَا خِزْيَ فَوْقَهُ وَلَا خُسْرَانَ أَعْظَمُ مِنْهُ، سَمَّاهَا اللَّهُ لَظَى؛ (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى)[الْمَعَارِجِ: 16]؛ لِشِدَّةِ تَلَظِّيهَا وَتَلَهُّبِهَا، وَالْحُطَمَةَ؛ لِأَنَّهَا تَحْطِمُ كُلَّ مَا أُلْقِيَ فِيهَا، وَالسَّعِيرَ؛ لِشِدَّةِ اشْتِعَالِهَا وَارْتِفَاعِ أَلْسِنَةِ لَهَبِهَا، وَسَمَّاهَا سَقَرَ لِأَنَّهَا تُذِيبُ الْأَجْسَامَ بِاشْتِدَادِ حَرِّهَا، وَهِيَ الْجَحِيمُ، وَهِيَ الْهَاوِيَةُ لِأَنَّ الْمُعَذَّبَ يَهْوِي فِيهَا مَعَ بُعْدِ قَعْرِهَا، وَهِيَ جَهَنَّمُ.

وَالْقُرْآنُ يُجَلِّي لَنَا عِظَمَ النَّارِ، وَالْقَلْبُ الْحَيُّ يَوْجَلُ إِذَا تَصَوَّرَ عَظَمَتَهَا وَسِعَتَهَا؛ فَهِيَ وَاسِعَةٌ تَسْتَوْعِبُ أَهْلَهَا عَلَى كَثْرَتِهِمْ، وَتَطْلُبُ الْمَزِيدَ؛ (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)[ق: 30]، وَهِيَ بَعِيدَةُ الْقَعْرِ، شَدِيدَةُ الْعُمْقِ (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ)[الْقَارِعَةِ: 9]، وَهِيَ -لِعِظَمِهَا- تُجَرُّ وَلَا تُحْمَلُ؛ (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ)[الْفَجْرِ: 23]، قَالَ -ﷺ-: "يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا" صحيح مسلم، وَلِلنَّارِ خَزَنَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، لَا يَلِينُونَ لِكَافِرٍ وَظَالِمٍ؛ (عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ)[التَّحْرِيمِ: 6]، يَتَوَسَّلُ إِلَيْهِمُ الْمُعَذَّبُونَ لِلتَّخْفِيفِ أَوِ الْقَضَاءِ (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)[الزُّخْرُفِ: 77]، هَذِهِ النَّارُ لَيْسَ وَقُودُهَا الْحَطَبَ وَالْخَشَبَ، بَلْ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ؛ (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)[الْبَقَرَةِ: 24]، وَالنَّارُ وَصَفَهَا اللَّهُ بِأَنَّهَا حَامِيَةٌ فَقَالَ: (تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً)[الْغَاشِيَةِ: 4]، وَوَصَفَ لَنَا النَّبِيُّ -ﷺ- هَذَا حِينَ قَالَ: "نَارُكُمْ جُزْءٌ مِن سَبْعِينَ جُزْءًا مِن نَارِ جَهَنَّمَ، قيلَ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قالَ: فُضِّلَتْ عليهنَّ بتِسْعَةٍ وسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا" صحيح بخاري، وَلِلنَّارِ أَبْوَابٌ سَبْعَةٌ، يَدْخُلُ كُلَّ قَوْمٍ مِنْ بَابٍ بِحَسْبِ عَمَلِهِمُ السَّيِّئِ، وطَعَامُ أَهْلِهَا الْغِسْلِينُ وَهُوَ مَا يُسِيلُ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ وَيَخْرُجُ مِنْ فُرُوجِهِمْ، وَالزَّقُّومُ، وَالضَّرِيعُ وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الشَّوْكِ لَا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ لِخُبْثِهِ، وَأَمَّا الشَّرَابُ فَالْحَمِيمُ، وأما اللِبَاسِ (قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ).

وَالصَّالِحُونَ كُلُّ حَرٍّ يُذَكِّرُهُمْ بِحَرِّ النَّارِ؛ فَيَسْعَوْنَ بِصَالِحِ الْعَمَلِ لِلنَّجَاةِ، قَالَ أَبُو وَائِلٍ: "خَرَجْنَا مَعَ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَأَتَيْنَا عَلَى تَنُّورٍ، فَلَمَّا رَآهُ عَبْدُ اللَّهِ وَالنَّارُ تَلْتَهِبُ فِي جَوْفِهِ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا)[الْفُرْقَانِ: 12]".

وَمَرَّ طَاوُوسٌ بِالسُّوقِ فَرَأَى رُؤُوسًا مَشْوِيَّةً بَارِزَةَ الْأَسْنَانِ، فَلَمْ يَنْعَسْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)[الْمُؤْمِنُونَ: 104]".

فَالْمُؤْمِنُ الْمُوَفَّقُ هُوَ مَنْ يَسْعَى فِي فَكَاكِ نَفْسِهِ مِنَ النَّارِ، وَحِينَ يَرَى شِدَّةَ حَرِّ الدُّنْيَا فَهُوَ يَتَذَكَّرُ حَرَّ النَّارِ، وَيَطْمَحُ لِلنَّجَاةِ بِحُسْنِ الْعَمَلِ وَالْبُعْدِ عَنْ أَسْبَابِ سَخَطِ اللَّهِ. وَمَنْ كَانَ رُجُوعُهُ إِلَى رَبِّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- حَاضِرًا فِي قَلْبِهِ عَلَى الدَّوَامِ نُصِبَتْ أَرْكَانُهُ فِي الصَّالِحَاتِ، وَسَخَتْ يَدُهُ بِالْإِنْفَاقِ، وَلَازَمَ الصَّلَاةَ

وَالْقُرْآنَ، وَنَافَسَ فِي الطَّاعَاتِ، وَسَابَقَ إِلَى الْخَيْرَاتِ. يَبْنِي دَارَهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا، وَيَكْتَفِي مِنْ دُنْيَاهُ بِمَا يُبَلِّغُهُ آخِرَتَهُ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ لَا رُجُوعَ لِلْعَمَلِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَالْفُرْصَةُ وَاحِدَةٌ، وَالْخَسَارَةُ فِيهَا فَادِحَةٌ.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾﴿105﴾

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) أي: يقولُ اللهُ تَعالَى لأهْلِ النَّارِ يومَ القِيامةِ: ألَمْ تكُنْ آياتُ كِتابي تَتتابَعُ عليكم قِراءتُها في الدُّنيا شيئًا فشيئًا، فكنتُمْ تُكذِّبون بها. موسوعة التفسير

والاستفهامُ للإنكارِ والتوبيخ.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾﴿106﴾

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا) قال السعدي: فحينئذ أقروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا) أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع، (وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ).

(وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) أي: وكُنَّا في الدُّنيا قَومًا ضالِّينَ عن طَريقِ الحقِّ، تائهينَ عن سَبيلِ الرَّشادِ. موسوعة التفسير

قال البقاعيُّ: (غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا أي: أهواؤنا الَّتي قادتْنا إلى سُوءِ الأعمالِ الَّتي كانت سببًا ظاهرًا للشَّقاوةِ).

قال ابن كثير: أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها ولم نرزقها.

فالشِّقوة هنا تعني: الشهوة، سماها الله شقوةً؛ لأن الشهوة تؤدي إلى الشقاوة: "ألا يا رُبَّ شهوةِ ساعةٍ أورثت حزنًا طويلًا"، إننا آثرنا شهواتِنا على طاعة ربنا، آثرنا حظوظَ أنفسنا، آثرنا المتَع الرخيصة يا رب، وهكذا.... هؤلاء الذين انغمسوا في ملذَّات الدنيا إلى قمة رؤوسهم كانوا خاسرين، هؤلاء الذين أقبلوا على الدرهم والدينار، وعبدوا شهواتِهم من دون الله هم الخاسرون، اللهم اهدنا للحق، وأرشدنا للخير، اللهم توفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾﴿107﴾

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ) أي: قالوا: ربَّنا أخْرِجْنا مِنَ النَّارِ إلى الدُّنيا، فإنْ عُدْنا إلى ما كنَّا عليه مِنَ الكُفْرِ والعِصيانِ، فنَحنُ ظالِمونَ لأنفُسِنا، ومُستحِقُّونَ للعِقابِ. موسوعة التفسير

يَصيحونَ ويَصطَرِخونَ فيها، ويَبحَثونَ عن مَخرَجٍ منها فلا يَستَطيعونَ، ولا يَنفَعُهم النَّدَمُ بعدَ دُخولِها.

والقرآن الكريم يصور بأسلوبه البديع المؤثر، أحوال الكافرين في النار، تصويرا ترتجف له القلوب، وتهتز منه النفوس، وتقشعر من هوله الأبدان، رحمة بنا حتى نتجنب كل ما يوصل اليها.

قال القرطبيُّ: (طَلَبوا الرَّجعةَ إلى الدُّنيا كما طَلَبوها عندَ الموتِ).

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾﴿108﴾

(قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) أي: قال اللهُ لأهْلِ النَّارِ: اقْعُدوا في النَّارِ ذَلِيلينَ مُبعَدينَ حَقيرينَ، ولا تُكلِّموني في إخراجِكم منها. موسوعة التفسير

قال السعديُّ: (وهذا القولُ- نسألُه تعالى العافيةَ- أعظَمُ قولٍ على الإطلاقِ يَسمَعُه المجرِمون في التَّخييبِ، والتَّوبيخِ، والذُّلِّ، والخَسارِ، والتَّأييسِ مِن كلِّ خيرٍ، والبُشرى بكلِّ شَرٍّ، وهذا الكلامُ والغضبُ مِن الرَّبِّ الرَّحيمِ أشَدُّ عليهم وأبلَغُ في نِكايَتِهم مِن عذابِ الجحيمِ).

قال ابن عثيمين: أنَّ عَذابَ الكافرينَ عَذابٌ مُؤلِمٌ أَلَمًا نَفْسيًّا، وأَلَمًا جُسمانيًّا؛ فأمَّا الأَلَمُ النَّفْسيُّ فدَليلُه قولُه تعالى: قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ؛ فهذا مِن أبلَغِ ما يكونُ مِن الإذلالِ الَّذي به الأَلَمُ النَّفسيُّ، وأمَّا الأَلَمُ البَدنيُّ فدليلُه قَولُ اللهِ تعالى: كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا [النساء: 56]، وقولُه تعالى: وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ [محمد: 15]... وعندما ييأسون من إجابة استغاثتهم يطلبون من مالكٍ أميرِ الخزنة أن يدعو الله بأن يكتب عليهم القضاء بالفَناء، فماذا يُردّ عليهم، وبماذا يُقضى عليهم؟ قال -تعالى-: (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)[الزخرف: 77]، وقال: (كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) [الإسراء:97].

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾﴿109﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال السعدي: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ الحالَ الَّتي أوصَلَتِ المشركينَ إلى العذابِ، وقطَعَتْ عنهم الرَّحمةَ، فقال

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) أي: إنَّه كان في الدُّنيا جَماعةٌ مِن عِبادي المؤمنينَ المستضعَفينَ يَقولون في دُعائِهم: ربَّنا آمَنَّا بكَ وبجَميعِ ما جاءَتْ به رُسُلُكَ؛ فاسْتُرْ ذُنوبَنا، وتَجاوَزْ عن مُؤاخَذَتِنا بها، وارحَمْنا وأنتَ أفضَلُ مَن رحِمَ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: مِن أنواعِ التوسُّلِ المشروعِ في دعاءِ الله تعالى: التوسُّلُ إلى اللهِ تعالَى بالإيمانِ به وطاعتِه.

قال السعدي: جَمَعوا بيْنَ الإيمانِ المقتضي لأعمالِه الصَّالحةِ، والدُّعاءِ لِرَبِّهم بالمغْفرةِ والرَّحمةِ، والتَّوسُّلِ إليه برُبوبيَّتِه، ومِنَّتِه عليهم بالإيمانِ، والإخبارِ بسَعةِ رَحمَتِه، وعُمومِ إحسانِه، وفي ضِمْنِه ما يدُلُّ على خُضوعِهم وخُشوعِهم وانكسارِهم لِرَبِّهم، وخَوفِهم ورَجائِهم. فهؤلاء ساداتُ النَّاسِ وفُضلاؤهم.

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾﴿110﴾

(فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ) أي: فاسْتهزأْتُم بهؤلاءِ المؤمنينَ إلى أنْ أَنساكُمْ اشتِغالُكم بالسُّخريةِ منهم ذِكْري، وكنتُمْ تَضْحَكون منهم في الدُّنيا. موسوعة التفسير

قال السعديُّ: (وهذا الَّذي أوجَبَ لهم نِسيانَ الذِّكرِ اشتِغالُهم بالاستِهزاءِ بهم، كما أنَّ نِسيانَهم للذِّكرِ يَحُثُّهم على الاستِهزاءِ؛ فكلٌّ مِنَ الأمرينِ يمُدُّ الآخَرَ).

قال القرطبي: يُستفادُ مِن هذا: التَّحذيرُ مِن السُّخريةِ والاستِهزاءِ بالضُّعفاءِ والمساكينِ، والاحتِقارِ لهم، والإزراءِ عليهم، والاشتِغالِ بهم فيما لا يُغْني، وأنَّ ذلك مُبْعِدٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ [المطففين: 29 - 32].

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾﴿111﴾

(إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا) أي: إنِّي جَزَيتُ هؤلاء المؤمنينَ الَّذين اتَّخَذْتُموهم سِخْرِيًّا وكنتُمْ تَضْحَكون منهم؛ بسببِ صَبْرِهم على ما نالَهُم في الدُّنيا منكم مِن أذًى واستِهزاءٍ، وصبرِهم على الطَّاعةِ، وعن المعصيةِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا [الإنسان: 12].

(أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) أي: أنَّهم الفائِزونَ بالنَّعيمِ المقيمِ في الجنَّةِ، النَّاجونَ مِن عَذابِ النَّارِ. موسوعة التفسير

إن من أعظم الثمار التي يجنيها المسلم من الصبر والتحمل والمصابرة تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، ومحو الخطايا، ودخول الجنان.

جزى الله تعالى عباده الأبرار بصبرهم جنات فيها من النعيم المقيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. صبروا على طاعة الله وصبروا عن معصية الله وصبروا على أقدار الله فنالوا من المكرمات ما يعجز بيان البشر عن وصفه. أعد الله لهم من وسائل الراحة والنعيم ما يفوق الوصف، السرر المعدة لاتكائهم والهواء المنعش الخالي من كدر الحر أو البرد والظلال الدانية والثمار المتدلية ذللها الله لهم تطيعهم متى أرادوها، كما كانت جوارحهم في الدنيا ذليلة خاضعة منقادة، قال تعالى: (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا)[الإنسان:12-14]،وأعظم من هذا كله لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ - تَعَالَى - لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِهِ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾﴿112﴾

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ) أي: قال اللهُ في الآخِرةِ لأُولئكَ الأشقياءِ: كمْ كانتْ مُدَّةُ مُكْثِكم في الأرضِ مِنَ السِّنينَ. موسوعة التفسير

قال الرازيُّ: (الغرَضُ مِن هذا السُّؤالِ التبكيتُ والتوبيخُ؛ فقد كانوا يُنكرون اللُّبثَ في الآخِرَةِ أصلًا، ولا يَعدُّون اللُّبثَ إلَّا في دارِ الدنيا، ويظنُّون أنَّ بعدَ الموتِ يدومُ الفناءُ ولا إعادةَ؛ فلمَّا حُصِّلوا في النارِ، وأيقنوا أنَّها دائمةٌ، وهم فيها مخلَّدون سألهم: كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ؟ تنبيهًا لهم على أنَّ ما ظنُّوه دائمًا طويلًا

فهو يسيرٌ بالإضافةِ إلى ما أنكروه، فحينَئذٍ تحصُلُ لهم الحسرةُ على ما كانوا يَعتقدونَه في الدنيا مِن حيثُ أيقنوا خِلافَه؛ فليس الغرضُ السؤالَ، بل الغرضُ ما ذَكَرْنا).

إن مما يقوّي إيمان العبد بربه، ويزيده ثباتاً على دينه، واستقامة في سيره لله أن يلاحظ قصر الدنيا وسرعة انقضائها، فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذه الآية، وليتأمل في هذا الوقت الذي مضى! سيجد أنه قد كان في غرور ... العاقل الناصح لنفسه لا يبيع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوي شيئاً، ولو طلب الله والدار الآخرة لأعطاه خيراً في الدنيا والآخرة، كما قال لقمان الحكيم – رحمه الله –: (ابن آدم... بع الدنيا بالآخرة؛ تربحهما جميعاً، ولا تبيع الآخرة بالدنيا؛ تخسرهما جميعاً).

قال ابن عثيمين: هذه الآياتُ تُبيِّنُ أنَّ الإنسانَ يَنْبَغي له أنْ يَنتهِزَ فُرصةَ العُمرِ، وألَّا يَخسَرَ عُمرَه كما خَسِرَه هؤلاءِ، وأنَّه سوفَ يُبعَثُ ويُجازَى ويُحاسَبُ على عمَلِه، فنسألُ اللهَ تعالى أنْ يَجعَلَنا وإيَّاكم ممَّن حِسابُه يَسيرٌ، ومآلُه إلى دارِ القَرارِ في جنَّاتِ النَّعيمِ.

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾﴿113﴾

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) أي: قالوا: مَكَثْنا في الأرضِ يومًا أو بعضَ يومٍ. موسوعة التفسير

(فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ) أي: فاسأَلِ الحاسِبينَ الضَّابطينَ لِمِقدارِ ذلك. موسوعة التفسير

استَقْصَروا مُدَّةَ لُبْثِهم في الدُّنيا بالإضافةِ إلى خُلودِهم، ولِمَا هم فيه مِن عَذابِها؛ لأنَّ المُمْتحَنَ يَستطيلُ أيَّامَ مِحْنَتِه، ويَستقصِرُ ما مَرَّ عليه مِن أيَّامِ الدَّعةِ إليها. الدرر السنية

﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾﴿114﴾

(قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) أي: قال اللهُ لهم: ما لَبِثْتُم في الأرضِ إلَّا وقْتًا يَسيرًا. موسوعة التفسير

وقال الشِّنقيطيُّ: (لأنَّ مُدَّةَ مُكْثِهم في الدُّنيا قليلةٌ جِدًّا بالنِّسبةِ إلى طُولِ مُدَّتِهم خالدينَ في النَّارِ).

(لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي: لو أنَّكم كنتُمْ تَعلَمون قِلَّةَ لُبْثِكم في الدُّنيا لَمَا آثرْتُم الدُّنيا الفانيةَ على الآخِرَةِ الباقيةِ، فتركْتُم طاعةَ اللهِ في تلك المُدَّةِ القَصيرةِ، واستَحْقَقْتُم سَخَطَهُ، وخَسِرْتُم النَّعيمَ الأبديَّ. موسوعة التفسير

قال البقاعي: لَمَا آثرْتُمُ الفانيَ على الباقي، ولَأقْبَلْتُم على ما يَنفَعُكم، وتَرَكْتُم الخَلاعةَ الَّتي لا يَرْضاها عاقِلٌ، ولا يكونُ على تَقديرِ الرِّضا بفِعْلِها إلَّا بعدَ الفراغِ مِنَ المهِمِّ، ولكنَّكم كنتُمْ في عِدادِ البهائمِ.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾﴿115﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا شرَحَ اللهُ سُبحانَه صِفاتِ القِيامةِ؛ ختَمَ الكلامَ فيها بإقامةِ الدَّلالةِ على وُجودِها؛ وهي أنَّه لولا القِيامةُ لَمَا تميَّزَ المطِيعُ مِن العاصي، والصِّدِّيقُ مِن الزِّنديقِ، وحينَئذٍ يكونُ خَلْقُ هذا العالَمِ عبَثًا، فقال:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) أي: أفظَنَنْتُم أنَّني خلَقْتُكم لَعِبًا وباطلًا، بلا قصْدٍ ولا فائدةٍ ولا حِكْمةٍ، مُهمَلينَ؛ لا تُؤْمَرونَ ولا تُنهَون، ولا تُثابُون ولا تُعاقَبون. موسوعة التفسير

قال البِقاعيُّ: (ولما كان حالُهم في ظنِّهم أنْ لا بَعثَ، حتَّى اشْتَغلوا بالفرَحِ والبطَرِ والمرَحِ، والاستِهزاءِ بأهْلِ اللهِ، حالَ مَن يظُنُّ العَبَثَ على اللهِ الملِكِ الحقِّ المبينِ؛ .... "قال" أحسِبْتُم أنَّا نُهمِلُكم، فلا نُنصِفُ مَظلومَكم مِن ظالِمِكم، فحَسِبْتم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا؟!).

قال ابن عثيمين: إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى خَلَق الجِنَّ والإنسَ؛ لحِكمةٍ عَظيمةٍ، وغايةٍ حميدةٍ، وهي عبادتُه تبارك وتعالى، كما قال سُبحانَه وتعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات: 56]، وقال تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ [المؤمنون: 115]، وقال تعالى: أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى [القيامة: 36]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّ لله تعالى حِكمةً بالِغةً مِن خَلقِ الجِنِّ والإنسِ، وهي عبادتُه. وعلى هذا فمَن تمرَّد على رَبِّه واستكبَرَ عن عبادتِه فإنَّه يكونُ نابذًا لهذه الحِكمةِ التي خَلَق اللهُ العِبادَ مِن أجْلِها، وفِعلُه يَشهَدُ أنَّ اللهَ خَلَق الخَلقَ عَبثًا وسُدًى! وهو وإنْ لم يُصَرِّحْ بذلك لكِنْ هذا هو مُقتَضى تمرُّدِه واستِكبارِه عن طاعةِ رَبِّه.

قال السمعاني: يدلُّ على أنَّ الآدَمِيَّ لم يُخلَقْ لطلبِ الدُّنيا والاشتِغالِ بها، وإنَّما خُلِق ليَعبدَ الله، ويقومَ بأوامرِه.

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ [الأنبياء: 16].

وقال سُبحانَه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: 27].

(وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) أي: وتَحْسَبون أنَّكم بَعدَ مَوتِكم لا تُبعَثون يومَ القِيامةِ أحياءً للحِسابِ والجَزاءِ على أعْمالِكم خَيرِها وشَرِّها. موسوعة التفسير

الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى- حَتْمٌ لَازِمٌ، وَسُنَّةٌ مَاضِيَةٌ، لَا مَحِيصَ عَنْهَا، وَلَا انْفِكَاكَ مِنْهَا، وَكَمْ تَمَنَّى الصَّالِحُونَ أَنْ يَكُونُوا تُرَابًا قَبْلَ عِلْمِهِمْ بِمَصِيرِهِمْ مِنْ شَدَّةِ وَجَلِهِمْ وَخَوْفِهِمْ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا لَيْتَنِي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ ثُمَّ تُؤْكَلُ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَيْتَنِي كُنْتُ خَضِرَةً تَأْكُلُنِي الدَّوَابُّ.

قَالَ عمر: يَا لَيْتَنِي مِثْلُ هَذِهِ التِّبْنَةِ، لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي، لَيْتَنِي لَمْ أَكُ شَيْئًا، لَيْتَنِي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا.

يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَذَكَّرَ عَلَى الدَّوَامِ رُجُوعَهُ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى-؛ فَهُوَ وُجِدَ فِي الدُّنْيَا لِيَنْتَقِلَ مِنْهَا لَا لِيَبْقَى فِيهَا (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)[الْعَلَقِ: 8]، وَفِي حَالِ الْمُصِيبَةِ يُعْلِنُ الْمُؤْمِنُ ذَلِكُمُ الرُّجُوعَ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى-؛ لِيُخَفِّفَ مُصَابَهُ وَيَرْجُوَ الثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ -تَعَالَى- (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)[الْبَقَرَةِ: 156]هَذَا؛ وَمَنْ كَانَ رُجُوعُهُ إِلَى رَبِّهِ -سُبْحَانَهُ- حَتْمًا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ ذَلِكَ الرُّجُوعَ كُلَّ حِينٍ، وَمَنْ كَانَ رُجُوعُهُ إِلَى رَبِّهِ -سُبْحَانَهُ- حَاضِرًا فِي ذِهْنِهِ عَلَى الدَّوَامِ؛ قَوِيَ

إِيمَانُهُ وَيَقِينُهُ، وَوَاجَهَ الْمَصَاعِبَ بِثَبَاتٍ وَعَزْمٍ، وَأَخَذَ الدِّينَ بِقُوَّةٍ، وَلَمْ يَأْسَ عَلَى شَيْءٍ فَاتَهُ، وَلَمْ يَجْزَعْ مِمَّا أَصَابَهُ، وَعَاشَ فِي النَّاسِ عَزِيزًا، وَمَاتَ حَمِيدًا، وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِهِ سَعِيدًا؛ فَلَا يُسْتَذَلُّ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا؛ إِذِ الرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا هِيَ مَوْرِدُ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَى تَمَسُّكِهِ بِدِينِهِ؛ وَعَلَى زُهْدِهِ فِيمَا فِي أَيْدِيهِمْ، فَالنَّاسُ يُحِبُّونَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَيَكْرَهُونَ مَنْ يُنَافِسُهُمْ فِيهَا. وَسَعِدَ فِي آخِرَتِهِ لِأَنَّهُ يَجِدُ عُقْبَى إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ؛ فَقَدْ أَمْضَى دُنْيَاهُ يَسْتَعِدُّ لِرُجُوعِهِ إِلَى رَبِّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَلَنْ يَخِيبَ عَبْدٌ عَاشَ دُنْيَاهُ كُلَّهَا لِأَجْلِ اللَّهِ -تَعَالَى- وَالدَّارِ الْآخِرَةِ.

قال ابن القيم: كيف يَليقُ به أنْ يَترُكَ النَّوعَ الإنسانيَّ -الَّذي هو خُلاصةُ الوُجودِ، الَّذي كرَّمَه وفضَّلَه على كَثيرٍ مِن خَلْقِه- مُهْمَلًا، وسُدًى مُعطَّلًا، لا يَهْديهِ إلى أقْصَى كَمالاتِه، وأفضَلِ غاياتِه، بلْ يَترُكُه مُعطَّلًا لا يأمُرُه ولا يَنهاهُ، ولا يُثيبُه ولا يُعاقِبُه؟! وهل هذا إلَّا مُنافٍ لِحِكمَتِه، ونِسْبةٌ له مَا لا يَليقُ بجَلالِه؟! ولهذا أنكَرَ ذلك على مَن زعَمَه، ونزَّهَ نفْسَه عنه، وبيَّنَ أنَّه يَستحِيلُ نِسْبةُ ذلك إليه، وأنَّه يَتعالى عنه؛ فقال تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ؛ فنزَّهَ نفْسَه عن هذا الحُسبانِ؛ فدَلَّ على أنَّه مُستقِرٌّ بُطلانُه في الفِطَرِ السَّليمةِ، والعُقولِ المستقيمةِ، وهذا أحَدُ ما يدُلُّ على إثباتِ المعادِ بالعقْلِ، وأنَّه ممَّا تظاهَرَ عليه العقْلُ والشَّرعُ.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾﴿116﴾

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) أي: فتَعاظَمَ وتقدَّسَ اللهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ به سُبحانَه، ومِن ذلك إيجادُه المخلوقاتِ عَبثًا؛ فإنَّه التَّامُّ المُلْكِ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ، الَّذي لا يَتطرَّقُ الباطِلُ إليه في شَيءٍ مِن ذاتِه ولا صِفاتِه؛ فلا زوالَ له ولا لِمُلْكِه، فأنَّى يأْتيهِ العَبثُ. موسوعة التفسير

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، وكلُّ ما سِواهُ عَبيدُه؛ فهو المستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له. موسوعة التفسير

(رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) أي: رَبُّ العَرْشِ الشَّريفِ الحسَنِ البَهِيِّ المَنْظَرِ، الَّذي هو سَقْفُ المخلوقاتِ وأعظَمُها. موسوعة التفسير

قال الشنقيطيُّ: (وصَفَ عرْشَه بالكرَمِ؛ لِعَظَمتِه، وكِبَرِ شأْنِه).

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾﴿117﴾

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) أي: ومَن يَعبُدْ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ لا حُجَّةَ له على عِبادتِه؛ فرَبُّه وَحْدَه سيُحاسِبُه يومَ القيامةِ، ويُعذِّبُه على شِرْكِه به. موسوعة التفسير

قال الشنقيطيُّ: (استحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عِبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، بلِ البراهينُ القَطعيَّةُ المتواتِرةُ دالَّةٌ على أنَّه هو المعبودُ وَحْدَه، ولا يُمكِنُ أنْ يُوجَدَ دَليلٌ على عِبادةِ غَيرِه).

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) أي: إنَّه لا يَنجَحُ الكافِرونَ، ولا يَسْعدون، ولا يَفوزونَ، ولا يَنالونَ الخُلودَ في نَعيمِ الجنَّةِ، بلْ هم أهْلُ النَّارِ الهالِكونَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [يونس: 69، 70].

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾﴿118﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى أحوالَ الكُفَّارِ في جَهْلِهم في الدُّنيا، وعنادِهم في الآخرةِ؛ أمَرَ نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالانقطاعِ إليه، والالتِجاءِ إلى دَلائلِ غُفْرانِه ورَحْمَتِه؛ فإنَّهما هما العاصِمانِ عن كلِّ الآفاتِ والمخافاتِ.

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ) أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا رَبِّ، استُرْ ذُنوبَنا، وتجاوَزْ عن مُؤاخَذَتِنا بها، وارْحَمْنا في دُنيانا وآخِرَتِنا. موسوعة التفسير

قال ابنُ كثيرٍ: (هذا إرشادٌ مِنَ اللهِ إلى هذا الدُّعاءِ، فالغَفرُ -إذا أُطْلِقَ- معناهُ: مَحْوُ الذَّنْبِ وسَتْرُه عنِ النَّاسِ، والرَّحمةُ معناها: أنْ يُسدِّدَه ويُوفِّقَه في الأقوالِ والأفعالِ).

وقال السعديُّ: (وَقُلْ داعيًا لرَبِّك مُخلِصًا له الدِّينَ: رَبِّ اغْفِرْ لنَا؛ حتَّى تُنجِّينَا مِنَ المكروهِ، وارْحَمْنا؛ لِتُوصِّلَنا برَحْمَتِك إلى كلِّ خيرٍ).

(وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) أي: وأنتَ أفضَلُ مَن رحِمَ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (فكلُّ راحمٍ للعبدِ، فاللهُ خيرٌ له منه؛ أرحَمُ بعبدِه مِن الوالدةِ بولدِها، وأرحمُ به مِن نفْسِه).

وقال النَّسفيُّ: (رَحْمَتُه إذا أدرَكَتْ أحدًا أغنَتْه عن رَحمةِ غَيرِه، ورَحمةُ غَيرِه لا تُغْنِيه عن رَحْمتِه).

فهذا الإرشاد من الله تعالى بملازمة هذا الدعاء المبارك لما تضمنه من خيري الدنيا والآخرة الذي يتمنّاه كل عبدٍ مؤمنٍ، لذا علَّم النبي صلى الله عليه وسلم نظير هذا الدعاء أبا بكر الصديق: حيث سأله رضى الله عنه قائلاً: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي! فقال: ((قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)).

البدار البدار إلى العمل الصالح، والعلم النافع، وصحبة الأخيار وتلاوة آيات الذكر مع الأبرار، فقد أقبلت -والله- الفتن تموج كموج البحر، وتلطم أمواجها العاتية كل من لم يتسلح بسلاح الإيمان أو يتحصن بنور الصبر والقرآن، وربما خطفته أو جرفته بعيدا، فكونوا عن الفتن والبلايا من الصابرين الصادقين، ولصحبة الأخيار من السابقين، ولنعمه من الشاكرين، والحذر الحذر من اتباع خطوات الشيطان، التي تغضب الرحمان، وتوجب الخسران.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم.